خلال الفترة الطويلة التى عرفت فيها جمال عبدالناصر كانت هناك أوقات لا أستطيع فيها أن أفهمه أو أن أقر بعض تصرفاته .. ومع ذلك كانت مشاعرى نحوه هى نفس المشاعر .. الحب والحب وحده .. ففى عنقى دين له حتى نهاية حياتى ..

جمال عبدالناصر

عرفت هؤلاء

بقلم : انور السادات

هذا العالم مكانان لايمكن للانسان فيهما أن يهرب من ذاته .. هما الحرب والسجن .. وفى الزنزانة رقم ٥٤ عشت مع نفسى .. تلازمنى والازمها ليل نهار .. وحدة رهيبة لم يكن هناك من سبيل الى الخلاص منها سوى أن أعيش مع نفسى .. وفعلا عشت معها .. ولكن رغم هذه المعايشة لم أستطع أن أنفذ اليها كان شيئا ما يقف بينى وبينها ..

ظلمات كنت أعانى منها منذ زمن ولكنى لم ادركها تمام الادراك لانى لم استطع ان انقلها الى منطقة الضوء ..

وعندما سمحوا لنا فى السجن بالكتب والمجلات والصحف انكببت عليها اقرا فى نهم واجد فى كل سطر شيئا جديدا يفتح امامى افاقا لم اعرفها من قبل .

ولم يقتصر اثر قراءاتى المتعددة على توسيع افاقى الفكرية والعاطفية بل لقد ساعدتنى هذه القراءات على المزيد من التعرف على الذات .. فاستطعت ان اتخلص من ازمة عصبية كنت اعانى منها منذ زمن وكانت بسبب القبض على فى الساعة الثانية صباحا فى برد الشتاء القارس فى كل من عامى ٤٢ و ٤٦ .

لم اكن ادرك طبيعة هذه الازمة ولكنى كنت اشعر انها تعكر صفو سلامى الروحى .. الى ان دخلت السجن وعشت مع نفسى فطفت هذه المعاناة على السطح تلقائيا .. اسبوع واحد فى السجن يكفى لهذا ..

اما كيف تخلصت من هذه الازمة فالفضل يرجع الى مقال قرأته فى الـ « ريدرز دايجست » لاحد علماء النفس الإمريكان .. كانت خلاصة المقال او النتيجة التى وصل اليها الطبيب النفسانى بعد تجارب ٢٤ سنة هى ان الانسان فى اية مرحلة من مراحل حياته معرض لان يصاب بصدمة تكون نتيجتها ان يحس ان كل شىء حوله مغلق وكانه فى سجن لا باب له ..

اول باب لهذا السجن ان يعرف الانسان ماذا يضايقه .. وثانى باب .. الايمان .. مامعنى الايمان؟ .. ان تنظر الى اى شىء مؤلم يحدث على انه قدر لا بد من مواجهته وتحمله .. وبعد ذلك تتغلب على الآثار الناجمة عن هذا ..

فيجب الا تفكر انه ليس هناك حل لاية مشكلة ..

حل دائما هناك .. ماالذى يجعلك تفكر .. إيمانك بان الله قد خلقك لان عليك دورا ان تؤديه فى هذه الحياة .. والاله الذى خلقك قديرا على الاطلاق .. بالعكس إنه خير .. لا كما يصوره لنا الشيخ فى كتاب القرية .. مخيف ..

لعلاقة المثلى بين الانسان والله لا تنبنى على ف او على الثواب والعقاب .. بل على قيمة ى من كل قيمة .. وهى الصداقة .. فمن صفات ق الرحمة والعدل والحب .. ثم هو قادر على ء لانه مصدر الاشياء جميعا .. فاذا اتخذت صديقا منحك الاطمئنان .. فتحت اية ظروف جميع الاحوال تحبه ويحبك ..

ى تحليل العالم النفسانى لم يحل لى عقدة ة العصبية فقط .. بل فتح امامى افاقا من ب لا حدود لها فى علاقاتى بالكون .. كانت ة فى خضم الحياة العادية فكشفت عنها تجربة جن ومعاناتها بحيث اصبح الحب المنطلق بى لكل افعالى ومشاعرى ..

ن اجل هذا .. ولانى اصبحت مليئا باليقين طمئنان لم اهتز لحظة واحدة وسط الاحداث المتقلبة التى واكبت حياتى فى جميع مراحل العمر .. ولم يخذلنى الحب مرة واحدة .. بل كان دائما ينتصر فى النهاية ..

وهذه حكايتى او طرف منها مع جمال عبد الناصر .. ففى الثمانى عشرة سنة التى لازمته فيها .. كانت هناك اوقات لا استطيع فيها ان افهمه او ان اقر بعض تصرفاته .. ومع ذلك كانت مشاعرى نحوه هى نفس المشاعر .. الحب والحب وحده ..

وقد تساءل البعض فى حيرة كيف قضيت هذه الفترة الطويلة مع عبد الناصر من غير ان يقع بيننا ماوقع بينه وبين بقية زملائه مثلما تساءل صحفى اجنبى فى لندن قائلا اما انى كنت لا اساوى شيئا على الاطلاق واما انى كنت خبيثا غاية الخبث بحيث تحاشيت الصراع معه .. وبقيت انا الرجل الوحيد من رجال الثورة الذى لم يمسسه سوء بل على العكس عندما فارق عبد الناصر الحياة كنت انا نائب رئيس الجمهورية الوحيد ..

وان دل هذا التساؤل الساذج على شىء فانما يدل على جهل اصحابه بطبيعتى فلا انا كنت عديم الصفة اثناء حياة عبد الناصر ولا كنت خبيثا او لئيما فى حياتى قط .. كل مافى الامر انى وعبد الناصر تصادقنا ونحن فى سن التاسعة عشرة ثم جاءت الثورة واصبح هو رئيسا لجمهورية مصر .. فقلت فى نفسى اهلا وسهلا .. صديقى الذى اثق فيه قد صار رئيس جمهورية وهذا شىء يسعدنى .. ونفس الاحساس شعرت به عندما اصبح عبد الناصر زعيما للامة العربية وبنى حوله هالة كبيرة ..

احيانا كنا نختلف وتحدث بيننا جفوة قد تستمر شهرين او اكثر يرجع السبب فيها ربما الى اختلافنا فى الراى او الى دس بعض من لهم تأثير عليه ممن حوله .. فقد كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعة الى الاصغاء للقيل والقال ..

ولكن ايا كان الامر فلم يحدث مرة واحدة ان وضعت نفسى موضع الدفاع .. فليس من طبعى ان افعل هذا بالنسبة لعبد الناصر او لغيره من الناس .. طبعا كانت تنتهى الجفوة مهما طالت عندما يتصل بى تليفونيا ويسال اين كنت طوال هذه الايام ولماذا لم اتصل به ..؟ .. وكنت اجيب بانه كان لابد مشغولا ولذلك فضلت ان اتركه لمشغولياته .. ثم نلتقى وكان شيئا لم يكن .. حدث هذا مرارا عديدة ولكنى كنت اقابل كل مايفعله عبد الناصر بالحب الخالص من جانبى ..

لقد تسلم تنظيم الضباط الاحرار فى نهاية سنة ١٩٤٢ وقطع به شوطا طويلا استغرق ٦ سنوات كاملة كنت انا اثناءها فى السجون والمعتقلات .. ثم بعد خروجى من السجن كان لابد لى من العودة الى الجيش لكى اشاركه وزملاءه فى الجهود التى بداتها ثم استانفوها هم من بعدى .. وفعلا تحقق هذا عندما عدت الى الجيش عام ١٩٥٠ ..

وصدرت النشرة العسكرية بعودتى الى القوات المسلحة اعتبارا من ١٥ يناير ١٩٥٠ برتبة يوزباشى ـ وهى الرتبة التى خرجت بها ـ وكان زملائى فى الجيش قد سبقونى فى ذلك الوقت برتبتين .. رتبة صاغ ورتبة بكباشى ..

كان اول من زارنى مهنئا جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر علمت من عبد الناصر ان تنظيم الضباط الاحرار قد اصبح اوسع انتشارا وان قوته تشتد يوما بعد يوم .. وكانما اراد ان يثبت لى مدى قوة التنظيم او ان يختبر هذه القوة .. طلب منى ان اتقدم لامتحانات الترقية بحيث استعيد مافقدت من رتب وانا خارج الجيش .. وان لااهتم بالصعاب التى سوف تواجهنى .. فمهما كان شانها سيذللها التنظيم ويتخطاها .. وفعلا تم هذا وحصلت على رتبة بكباشى فى وقت قصير ..

طلب منى عبد الناصر ان لا اقوم باى نشاط سياسى واضح .. لانى بسبب تاريخى النضالى لابد ان اكون بطبيعة الحال مراقبا ولو ان هذا لم يمنع جمال من ان يكشف لى عن خريطة الضباط فى وحدات الجيش المختلفة .. فكنت ازورهم واتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعا احاديث ودية لاعلاقة لها بالسياسة .. فلم يكن من المفروض فى التنظيم ان اكشف عن نفسى او ان اشعرهم اننى اعرف انهم ينتمون الى الضباط الاحرار ..

كانت هذه قاعدة اساسية ارساها عبد الناصر يوم تسلمه التنظيم من بعدى عندما قبضوا على فى صيف ١٩٤٢ .. وهى ان يظل تشكيل كل خلية سرا لا يعرفه الا اعضاؤها ..

كان الرجل الثانى بعدى فى ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرءوف الذى ظل على اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الاخوان المسلمين والذى كان على اتفاق تام معى فى ان تنظيم الضباط الاحرار يجب ان لا يخضع لاية هيئة او لاى تنظيم حزبى لان الهدف منه هو خدمة مصر باجمعها لافئة معينة ..

عندما دخلت المعتقل كان عبد الناصر مازال فى السودان ولكن بمجرد نزوله بكتيبته ووصوله مصر اواخر ١٩٤٢ اتصل به عبد المنعم عبد الرءوف لضمه الى التنظيم .. فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين وكانت هذه هى القاعدة التى ارسيتها .. اى ان لا ينضم الى التنظيم الا من كان متميزا فى عمله بالقوات المسلحة .. فالضابط الممتاز موضع ثقة الجميع .. ومن السهل ان ينقاد اليه الاخرون ..

استجاب عبد الناصر على الفور .. ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك ان يزيح عبد المنعم عبد الرءوف من طريقه وان يتولى هو قيادة التنظيم بدلا منه ..

كانت قياده عبد الناصر لتنظيم الضباط الاحرار تختلف عن قيادتى .. فقد لجا الى تكوين خلايا سرية فى الجيش .. كل خلية منها لا تعرف الاخرى وتكاثرت الخلايا يوما بعد يوم .. حتى شملت القوات المسلحة باجمعها وخاصة المناطق الحساسة فيها مثل ادارة الجيش ..

فى سنة ١٩٥١ شعر عبد الناصر ان التنظيم قد وصل مرحلة النضج وانه لابد من قيادة خاصة .. وان الكثيرين من اعضائه قد بداوا يتساءلون عن قائد التنظيم او قادته .. بينما كان بمصر فى هذا الوقت خمسة اجهزة سرية هى البوليس السياسى والمباحث الجنائية والمخابرات الحربية للجيش .. والمخابرات الخاصة بالانجليز والـ C.E.A الامريكية التى دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية .. هذا بخلاف جهاز اخر خاص بالملك ويتبع السراى مباشرة ..

لذلك كان الحرص مطلوبا فى تكوين الهيئة التاسيسية فبدا عبد الناصر فى اختيار اعضائها ممن احتك بهم هو شخصيا فى حرب فلسطين وممن له معهم صداقة ثم ممن كانوا اصلا قادة التنظيم قبل ان يتسلمه ..

وقد يبدو اختيار عبد الناصر لى دليلا على الوفاء .. صحيح اننى كنت قد بدات تنظيم الضباط الاحرار .. ولكننى بقيت بعيدا عن التنظيم ثمانى سنوات وهى الفترة مابين فصلى من الجيش سنة ٤٢ الى ان عدت اليه سنة ٥٠ .. ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمى الى ذلك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين الا اذا كانت هذه المشاعر وليدة صداقة وطيدة الاركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر .

ورغم اننا تعارفنا على بعض وعمرنا لم يتجاوز الـ ١٩ سنة .. الا اننى لا استطيع ان اقول سوى ان علاقتنا كانت علاقة احترام وثقة من جانب كل منا .. وليست صداقة على الاطلاق .. فلم يكن من السهل على عبد الناصر ان ينشىء علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع اى انسان وهو المتشكك دائما .. الحذر .. الملىء بالمرارة .. العصبى المزاج ..

لا اقصد بهذا تجريد عبد الناصر فى اختياره لى من عامل الوفاء ولكننى اضيف الى هذا عاملا آخر وهو الذكاء .. فمن خط سيرى فى القوات المسلحة ومن علمه منذ ان تقابلنا فى مقتبل العمر انى رجل ذو مبادىء وقيم .. لم يكن من الصعب على عبد الناصر ان يدرك انه يمكنه الاعتماد على وان اضافته لى الى الهيئة التاسيسية سوف تجعلنى مدى العمر وفيا لهذا الوفاء من جانبه ..

ومما لاشك فيه ان عبد الناصر ، وهو الحذر دائما بتكوينه ، كان واثقا كل الثقة اننى ساقف الى جانبه باعتبارى قوة لها تجربتها وتاريخها .. قوة ستسانده فى الصراعات التى بدات داخل الهيئة التاسيسية حتى قبل قيام الثورة ..

ولذلك كان يهرع الى عندما اعود الى القاهرة فى اجازة ليشرح لى المصاعب التى يلاقيها من بعض الاعضاء .. وعندما تعود بى الذاكرة الى تلك الايام البعيدة لا ابالغ اذا قلت ان عبد الناصر كان يقضى معى خمسة ايام كاملة فى كل اجازة من اجازاتى التى لم تكن تتعدى الاسبوع ..!

وكنا كل مرة نتدارس احوال التنظيم والصعاب والمشاكل التى تواجهنا .. هذا الى جانب ان عبد الناصر كان يضع تجربتى محل تقدير .. اذكر مثلا انه فى سنة ١٩٥١ طرات له فكرة ان تبدا الثورة بحركة اغتيالات واسعة .. وسالنى فى هذا فقلت له : غلط ياجمال .. ماهى النتيجة .. الى اين ستصل .. ؟ .. ان الجهد الذى يبذل فى حركة الاغتيالات يساوى تماما الجهد الذى يبذل فى قيام الثورة ولذلك دعنا ناخذ الطريق المباشر المستقيم .. وليكن هدفنا المباشر هو الثورة ..

ثم قامت الثورة فى ١٩٥٢ وساهمت فيها ولكن لم تكن مساهمتى بالامر الذى يهمنى فى حد ذاته .. الاهم من كل شىء ان الثورة قد قامت وتحقق بها الحلم الذى استولى على حياتى منذ ان كنت صبيا لم ابلغ الثانية عشرة بعد ..

هذا ماجعلنى اعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع .. لانى لم اكن اريد شيئا .. لم تكن لى مطالب من اى نوع وفى اى وضع كنت .. عضوا فى مجلس قيادة الثورة او سكرتيرا للمؤتمر الاسلامى او رئيس تحرير جريدة الجمهورية او وكيلا لمجلس الامة .. او رئيس مجلس الامة .. لم يتغير حبى لعبد الناصر او تختلف مشاعرى نحوه .. فانا الى جانبه منتصرا كان او مهزوما ..

ولعل هذا ما جعل عبد الناصر يلتفت حوله بعد ١٨ سنة وينتبه الى ان هناك انسانا لم تقم بينه وبينه معركة فى يوم ما ..

فقد عشت مع عبد الناصر وفى عنقى دين له لن انساه طوال حياتى .. فلن انسى له انه ضمنى الى تنظيم الضباط الاحرار بعد رجوعى الى الجيش ، وكنت قد ابعدت لمدة ٨ سنوات قضيتها فى المعتقل والسجن ..

فانا لست مثل بعض زملاء عبد الناصر الذين اتهموه بانه كرومر ، او الذين تسلقوا فى حياته ، فقد تحملت المسئولية واعلنت اننى مسئول عن كل قرار اتخذه عبدالناصر طوال فترة حكمه ..

وهذا ما جعلنى اقول ان الحب ينتصر فى النهاية .. فلم يكن من السهل ان تزول الغشاوة من عينى عبد الناصر .. وداخله ملىء بتناقضات لا يعلمها الا الله .. يحتم على واجبى كصديق ان لا اكشفها او افصح عنها .. ولكنها كانت موجودة .. عبد الناصر مات دون ان يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون .. فقد قضاها كلها بين انفعال وانفعال .. القلق ياكله اكلا فقد كان يفترض الشك فى كل انسان مسبقا .. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا ان خلف عبد الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه اقرب الناس اليه او داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها ..

وهذا هو السبب الذى جعل بعض هؤلاء الموتورين ينفثون عن حقدهم على عبد الناصر بعد وفاته ، ويتهمونه فى نمته المالية .

واشهد انا ، وكل من عرف عبد الناصر عن قرب انه برىء من هذه التهمة تماما .

ولكن كما قلت وما زلت اكرر .. انتصر الحب فى النهاية .. هذا الحب الذى كان وليد المرارة والالم فى الزنزانة ٥٤ .. فلا شىء مثل المعاناة يصقل النفس ويزيل عنها الصدا ويكشف عن معدنها الاصيل .. فقد تكشف لى انى بطبعى وتكوينى احب الخير .. وان الحب هو الدافع الحقيقى لكل مافعل .. وبدون الحب لا استطيع فعلا ان اعمل ..

اغلب الناس يبهرهم النجاح الخارجى ـ مايصلون اليه من مراكز اجتماعية او مال او سلطان ـ واذا تغيرت هذه الصورة لسبب او لاخر اهتزوا واصابهم الانهيار .. فهم لايعرفون الصمود لانهم لايعرفون الصدق مع النفس او مع الاخرين فالغاية عندهم دائما تبرر الوسيلة ..

اما انا فقد درجت على ان تكون صورة الذات فى نظرى اهم عندى من صورتى فى نظر الناس .. رئاسة الجمهورية ليست اكبر عندى من انور السادات .. فانور السادات هو نفس انور السادات فى اى موقع وتحت اية ظروف .. انسان ليست له مطالب خاصة لنفسه ومن ليس بحاجة الى شىء فهو سيد نفسه .

هكذا تعلمت من تجاربى فى الحياة ..